لطفية الدليمي

نص من أربعة مقاطع

نورمو في يقظة الغزال

١ ـ أدخلُ طباع الريح

أُربي الأسرار والكوارثَ الصغيرة والأحلام في قفصٍ، وفي القفص عندليب وحدأة وتمساح وبرتقال وشموع وبكاء وثلج ودعابات وضحك وصرامة مريرة وأرغفة مظلمة وورقة تشهد أني امرأة من هذا الزمان. وهذا يبيح لي أن اركض مع الغزلان، أو أسبح مع التماسيح، أو أذيب الثلج على دعابة، ويعلن أني أحوز مفاتيح للوقت والنصوص: مفاتيح تجعل القمر يدحض أساطير الليل ويردد دفاتر آخر المجانين الذين يلاحقون البلادة بالكوارث الفاتنة والأغاني الناضجة.

الكلمة مفتاح، الكلمة ترفرف على الفجر بحدسٍ راداري وتنحني عليّ مثل نرجسة تلامس شفتيّ كأنها قبلة من كائنٍ غير مرئي ـ لكي أقولها، ولها رائحة البراري والحريق، وعليّ ان آخذها برائحتها المشيمية: عاريةً مثل طفلة مولودة بين السنابل آخذها، وأبتدع لها نصالاً ترفع المبالاة الى شرفات الجنون.

«نورمو» الكلمة، نامرا، نو أورما الرمانة السومرية وثمرة الرمان كنز احتمالات، ثمرة الحب والدم والميراث الغامض والكلمة الرمانة تتدحرج من صمتي الى هذيان المدينة وتزحم الهواء بلون برّي ونكهةٍ تقرع حجارة الشهوات. نورمو نو أورما الكلمة لها أجنحة من نبرات مثل حلم غامض. نورمو الكلمة تكتشف العالم وتقتسمه مع الهواء.

المشهد ١

نورمو الكلمة تهبُّ على المدينة فترتجف التماثيل والمرأة والرجل ويترنّح الحلم في الهبوب عندما تمرُّ نورمو مثل عاصفة على سكونهم فيرتعشون ويلوح وجهٌ غامض لامرأة، لا، وجهٌ غامض لرجل، لا وجه كائن واحد هو رجل وامرأة يكوّن المثال الحاذق للنقضِ رغم فداحة الهبوب.

أمام الكائن على الرصيف أرتال نابحة من الكلاب، أمامها أرتالٌ تموء من القطط الجائعة، أمامها أرتال من الفئران تصيء وتركض ولا قطعة خبز سوى حضيض الجوع، والمرأة تستظل بالحلم ويرتجفان معاً حتى بزوغ الجليد. نورمو الكلمة تعبر على الرجفة الكاسحة مثل جناحيْ اوزّة برّية وتسوط النهار والأجساد والحجارة إلى مملكة الدوامات.

نورمو تتربص فتصطاد الظلمات وتطلق عليها الأشجار والدموع الضوئية، والمرأة تدحرج الليلَ إلى الأقاصي وتلاحق النهار تاركةً وراءها دثارها الطويل كأحزان الصفصاف، ودثارُها يكنس المناجل والشظايا والأزيز وعصف الانفجارات عن كرّيات الدم اليقِظَة وتسدد عن كلِّ خطوة ثمنَ حلمٍ جريح وتمضي آخرَ الصحو الى نهار مطوّق بالأقفاص.

المشهد ٢

أما أنا فآخذ الحلم إلى حنان محصّن، آخذ الحلم الجريح إلى الطرقات أستجدي له ضماداً ومضادّات حيويةً ودماً، يقبلُ إليَّ الحشدُ مسرعاً يحمل قناني الدم الطازج.. إلا امرأةً واحدةً تنحني على الحلم وتمطر الزمن في دمعتين على الإصابة، يأتي أناسٌ مجهولون ويلتفون حولي كالدوّامات يطوّقونني ويطوفون بي الشوارعَ مردِّدين بفظاظة الكوابيس:

ـ هذه المرأة تربّي حلماً جريحاً.

يشير الصبيان إليّ، يشير باعةُ الصحف والسكائر وباعةُالوعود والنساء الشاحبات والعباءات الخاوية والدخان والغبار وقيظ النهار:

ـ هذه امرأة تربي الأحلام المصابة..

ـ هذه امرأة تربي الأحلام.. امرأة.. امرأة..

ولا يصدق العابرون أول الرؤية أنني أربي الأحلام كما تربي الجدّات دودَ الحرير على عروش التوت والظلمات.

تتفحصني السيدات وتلمس صبيّةٌ صغيرة وجهي ويدي وتغمض عينيها وتمضي في حلم مستعار وسط دوّامات الهواء وهمهمات الذاهلين، والناس يعلنون خرافتي:

ـ هي ذي المرأة التي تتبنىٰ أحلاماً مهجورة.

لم يفهم البعضُ مُهمتي، وظنوا انني أقوم بشعوذات في مساء الجوع لأقطف أرغفتي من السراب والغبار. فأوضحت لهم أنني لا أربي ولا أتبنّى سوى أحلام أمطرتها عليّ غيمةٌ ذات قيامة، وأنا لا أجمع الأحلام اليتيمة من الملاجئ والأرصفة، لأن لا قدرة لديّ على تربية أحلام لا أهل لها.

لبثت أركض وأنا أحتضن أحلامي المصابة. سخر البعضُ مني، والبعض رثىٰ لمهنتي، واصطدم بي المارةُ، وازدحم حولي آخرون، فبدأ أبنائي يتساقطون وداستْ أقدامُ الحمقىٰ والنساء الماجنات أفئدة أحلامي، وحاولتُ أن أستعيدَ بعض أبنائي، حاولتُ إنقاذهم من بين زحام العابرين والعابرات وأقدامهم، ونجحتُ في التقاط بعضهم وخبّأتهم في نبرتي وأطبقتُ عليهم محارةَ الصوت، ثم تحولتُ أمام الجموع إلى شجرة رمّان وبدأتُ أذرف زهوري على مرأىً من الشمس والقمر والصيف والجنون، وقطفتْ مني عاشقةٌ غصناً مزهراً لتضعه في مزهريتها بانتظار رجل قد لا يجيء.

المشهد ٣

استدرجت شجرةُ الرمان الدمَ إلى غوايتها، وازدهر جنون المياه في النهر عندما أظلّت الشجرة أكبر ساحات المدينة وأفصحت زهورُها عن شجَنِ العابرين في زمنها. وكنت أراها وآراني فيها، وأنا بين الناس الذين باغتهم ظهورُ شجرة هائلة وسط جدب الساحة الكبرى. ولما نظرت إلى أصابعي التمعتْ فيها عشرُ خواتم برؤوس أفاعٍ وعقبان وأسماك وغزلان وأسود لها عيونٌ من شعلات المرجان وجمر العقيق. وقبل أن تستبد بي دهشتي قال صوت موكّلٌ بتأويل الأحداث:

«هذا نذير احتجاب الفرح وسيادة الكمد، الخواتم ذهب والذهب ينحر الريح في الليل ويكبّل العاصفة».

ضحك رجلٌ عابر من صدىٰ التأويل، وضحك آخر من تماثلي مع شجرة الرمان، وضحكته أشبه بسيف. وضحكت امرأةٌ وضحكتها أشبه بنميمة. أما الرجل الذي ظل صامتاً فقد أشاع ضحكة صقيلة وكأنها رتاج يوصِد أبوابَ الروح بوجه الشجرة والعالم. وقال الصوت الموكل بالتأويل:

«عندما يضحك رجل صامت ضحكة صُلبة يوصد بها نوافذ الروح، فذلك نذيرُ انتشار العتمة في التراب والهواء والدم».

ورأيت ضحكته التي نفزتْ إلى عمق النهار بنصلها اللامع، ضحكتَهُ التي تعبر الضوءَ بالريش وتقنص الحرية بالعناد. رأيتها تتدحرج حتى تصير ثمرةَ رمّانٍ مكتملة وترقى أعلىٰ غصوني وتحتلني باكتساح ضاحك وكأنها تصطاد تاريخها من مُباغتتي فتصيبني بالظنون. وحين حاولتُ الهرب وحاولت التحليق لأنجو بها وبثماري الأخرى، إذا بالتاريخ النباتي يحكم الجذور عليّ فتأخذني الى مياه الأعماق ويتشبث الطينُ بي ليغرقني في المسارب الجوفية ويسحبني الى طبقات المقابر والقصور المندرسة، وأصابع العالم الحجري تشدني الى الهدير المائي وصهيل خيول الرماة. لحظتها تمنيتُ أن أكون طائراً لأدخل طباعَ الريح وأخرق الفراغ مثل سهم أو أمتدَّ في الأفق فأُوَازِي الغيمَ أو أقطعَ خطوط الضياء.

أرهقني وقوفي الشجري، أرهقتني عبوديةُ الشجر للتراب، أوجعني الظمأُ الصيفيُّ ومحاولتي الإفلات من الأصابع والصهيل والهدير وأهداف الرماة. ولمّا أن استبد بي أكثر من حزن وأيقظني

أكثرُ من نذير، أحسستُ بثقلي أنوء به وبوحشتي تؤبِّدني وبالأسى يشردني في العراء. وامتشقتْ ثماري الضوءَ وصارت تغوي العابرين فتفتنهم تحولاتُ الضوء او انخسافُ النهار، حتى سمعتُ ما رأوه فيَّ، فأدركتُ أنني شجرة مستوحشة تربّي الكوارث. وما إن أدركت هذا حتى سمعتُ السوط يرسل برقَ الألم في الهواء إلى جسدٍ عاصٍ فتنفلع ثمرة من ثماري وتنطش الحبوب ويسيل دمها على ندب الجسد المجلود، ثم نفضتُ جذعي لعلّي أنجو، ومرّ بي عابرون وقطاع طرق وتهامسوا:

«هذه امرأة شجرة تربي فواجعها على دمها،

هذه امرأة تذيع سرّها عبر كوارثها»...

حاولت مرةً أخيرة اقتلاع جذوري لعلَّني أُفيق في ضوءات الحنان لأغدو زهرةَ عُبادِ شمسٍ تدور حول ما لا يَمسك به أحدٌ، فاذا بسربٍ من صبيان وفتيات يُقبلون مأخوذين باكتشاف افتِتَانِهِم الواحد منهم بالآخر، فيقطفون كوارثهم الأولى مني ويَدَعُونني في عراء التشرد عزلاء حتى من الكارثة.

المشهد ٤

أنفي تاريخ الشجر وأسمع همس عاشقين، والستارةُ ممعنة في الرفيف، والنهر يدخل الحريق بينهما ومعهما، وأنا أقتنص اللغة من صدى الكلمات التي تتوالد بينهما. أركض الى المشهد، أدخل معهما رائحة الشمع وأراهما ينتحبان في سطوع العناصر. وجهه بين راحتيها، وهي تشدو الأسى في موسيقى الصعود، وثمة رنين معدني لكائنات تستقرئ الصمت وتخرق زهرة اللحظة لتعلق شمعتهما على مفصلة وبهاءَها على ارتياب، يقولان الخرافة وينهبان المستقبل مدناً، وأزمنة، وتدخل المحبة بهما حربَ الحلم، والكارثة تتدحرج في شرك السلالم وتستيقظ ضاحكة على رؤوس الأصابع.

المشهد ٥

آخذُ الكلمة إلى مجال الضجيج والتأرجح، أهزّها لأقشرها وأعثر على معانيها المغيّبة وراءها وفينا، أديرها الى الجهات فأرى أمامي دائرةً محدَّدةً بالحصى وشوك الصبار، في وسطها رجلٌ بثياب ميدانٍ ممزّقة، معه غزال وفأس وكرة معدن خضراء لامعة شبيهة برمانتي الحمراء. أحاول اقتحام المشهد لأمتحن الأعاجيب التي أرى، أدحرج الرمانة الى الدائرة فيعيدها الرجلُ إليّ. اقترب لألمس الغزال فيدحرج كرة المعدن الخضراء نحوي. أحاول أن أصدّها بالرمانة فتبدأ الحروب. يصوّب الغزال قرنيْه الشجريين إلى صدري، يغرزهما في رئتي، أصرخ أستغيث فلا أفتح فمي، ولا أجد سواي، والقرنان يتوغلان في صدري. أكاد أتهاوى، ولكن القرنين الناشبين في رئتي يوقفانني فلا أنهار ولا أسقط بفعل اشتباكي بموتي فأتَّحدُ بالغزال والموت وأقف بموتي أمام الغزال الذي بدأ ينتزع قرنيْه من جسدي. فجأة يتلاشى الغزال ويصير رسماً على قميصي، ويتحول الرجلُ إلى نجمة، والكرةُ الخضراء إلى فراشة، وثمرُ الرمان الى كلمة «نورمو». الكارثة نورمو تفجّر حباتها على قميصي فيتّحد دمها مع صورة الغزال ودمي ورائحة الرجل.

المشهد ٦

الكلمة لها مكائد، الكلمة لها بداهات، لها وشوم، لها غواية، لها بلاغة، لها مباغتة قاتلة، الكلمة تدَّعي الفخاخ وترسل الأنين وتطالبني بأن أعيدها الى مغامرتها. أطلقها من القواميس واللافتات والرسائل وتقول لي:

ـ دعيني لمن يسجلني في فهارس الأحياء الذين قاموا قيامة، أريد أن يغامروا بي وأغامر بهم...

أدعها تهذي رغباتها، ويداهمني رنينُ الهاتف. تأتي نبراتٌ جارفة منفلتة تتكثّف صوتاً نائياً ساخناً مقذوفاً من جبل أو صاعداً من حريق. أسمع في الصوت أسماءَ مدن مرت بها القيامة النووية: ناغازاكي، هيروشيما، نورمو، سومر. هل هو آت من هناك؟ اسمي يتوغّل في المدن المذبوحة، وتتوغل بي الحروب، وصوتُه آيةُ النجاة يجيءُ من سحابة حرارية من وراء سلالة الذاهلين. أسمعُهُ يهتف بي:

ـ أنا أسيرُ في المدن في البرق، لا أعلم هل روحي تتقدمني أم جسدي الذي يسبق روحي وروحي تطارد ثأرها في الحشود، أتسمعينني؟

ـ أسمع، أين أنت؟

ـ سأمضي لأبدِّد كلَّ ما يعترض انقذافي في الوهج، سأدوس العتبات والأجساد والدم والذاكرات وأُلقي بكارثتي في العراء الأخير لعلني أجدني.

ـ أين أنت؟ أين أنت؟

ـ في الوضوح في التوتر في انتظار خَصْم معلن ومعرفةٍ شرسة لأكون في معرفة نفسي أتَجهُ إليها إليّ لعلك لعل العويل يهمد لعل النار لعل....

(أصمت، والصوت ينهض من نشوره)

ـ ستأتين... سنمضي... ستأتين..

ـ لمن أدع من تبنّيتهم؟ إنهم سيموتون في ظمإ المدن المحصورة. لمن أدعهم، قلْ لي لمن ؟

ـ الأحلام تنمو بذاتها وهي تكبر حتى إنْ نسيناها أو تجاهلناها. ابتعدي عن الحلم تجديه صاعداً مثل شهاب. انتظركِ تعالي وإلاّ فإني...

لم أعد أسمع وعيده؛ فقد سمعتُ طَرْقاً على النافذة وصوتاً مثل مواء قطة يدعوني وأنا امرأة غامضة في حلم غامض مع رجل غامض. فأنهض من غموضي إلى النافذة. يقول الصوت:

ـ نورمو ـ أرمانو خذي هذه الكأس المترعة بالدموع، إنها من أجل ما سيأتي.

أخذت الكأس، فاختفت صاحبةُ الصوت في عتمة الليل. أغلقتُ النافذة وعدتُ إلى المجال الغامض فلم أجد أحداً؛ فقد غرق العالم في الكأس التي أحضرتها الرسولةُ من أجل ما سيأتي. وسمعت البلبلَ المتسلِّط الجميل يردد أغاريده على شجرة الرمان:

ـ نورمو... ارمانو.. نو اورما...

شدوُهُ الطائش هزم استبداد النعاس وأنا التي انتظرته زمناً وانشغلتُ بتربية الأحلام وتبنّي الكوارث. كان يبحث عمّن يُعنى بأناشيده الليلية ويريد أن يمتد في جسد آخر وشجن آخر.. فتحتُ النافذة ولمّا رآني اشتعلَ دمه بالغناء:

ـ ارمانو نورمو... اورما.. نو اورما..

بدأت ثمارُ الرمان تتفجر لفرط نشوتها وكأن الجمال في صوته مدية شحذها تطوافُهُ اليائسُ على حدائق المدينة فهو يقدم أغاريده في كل جهاتها التي اكتسحتها أقفاص الهواء والدوامات. ثم عاد اليّ عندما لم يعثر على امرأة سواي تفتح نافذتها بعد منتصف الليل وترنو إليه بمثل هذا الذهول.

٢ـ غزال

أنباء يقظة الغزال

الدائرة التي محيطها صبّار شائكٌ وحصى ناجزةٌ بانغلاقها، فكأنها ما حدثت وسط فوضى التشكّل الآني واندفاق الجمال واشتعال الزوايا والأقواس والمثلثات.

آنَ هبت عليها فوضى الجمال تعطّلَ قانونها مسقطاً اكتمالها، فتحولت بعد الخرق الى شكل لاإقليدي.

الدائرة قاحلة باكتمالها. أمّا الفوضى فإنها توثق فتنتها مع خصوبة الأشكال اللامسمّاة البادئة ظهورها اللامنتهية إلا بانتهاء الكون.

في الدائرة فأسٌ، الزمنُ معلّقٌ بشفرتها، الفأس مع الرجل الذي بملابس ميدان ممزّقة، الذي معه غزال، الذي دحرج كرة المعدن الخضراء نحو محيط العزاءات والسراب وجعلها تنفث أزمنةً ذات نبؤات غامضة مسرعة نحو أفولها كفراشات الظهيرة.

دحرج الكرة باتجاه محيط الدائرة باتجاه الحصى ويقظة الغزال المتربص بالجميع، فأيقظ الدائرة على انكسار محيطها، أيقَظَ الصبار، أيقظني الغزال.

البلاد مداريةُ القيظ، والحرب سعلاة الطفولة، والغزال يدنو في حروبه إليّ محركاً بهمهمات قصارِ الظلالَ التي غمرتني بالرمل والنذور المغلقة كبراعمِ نرجسة.

أدحرج الرمانة بعد أن أحث بسالة الرمان في الجسد. أخرق محيط الدائرة لأشكلها على انفلات الفوضى العظيمة بخط المساء الداجي بوميض البكور المشع وأكتب الخط بنصٍ من «التّاو» الذي أنبأني به «لاوتزو»:

«من يعرف كيف يعيش يمكنه أن يضرب في الأرض

دونما خوف من الكركدن أو النمر

لا يمسُّه قرحٌ في الحرب

ولا يجد الكركدنُّ موضعاً فيه يطعنه بقرنهِ

ولا النمر موضعاً يُنشب فيه مخالبه..

ولا الأسلحة مكاناً للطعن

لماذا كان هذا هكذا؟

لأنه لا يدع للموت مكاناً ينفذ منه».

نتبادل اليقظات. الغزال يدرك «التاوَ» في يقظته، وأنا أعرف التاو والغزال واليقظة والتبادل، والرجل دو كرة المعدن الخضراء يعرفني والغزال، وأنا أتبادل العرافة مع كهّان الغابة الغامضين، فلا يعرفني الرجل ولا الغزال، فأحمل رمانة الكائن المهاجر المتحوّل الباعث صهير الغزلان وانجماد الظهور بين موعدين.

الرجل يحمل كرته وردته المسننة وردة لإنقاذ الغجَر، والغزال يطلق قرنيه الشجريين فتسقط قوانين الدائرة: قطرها وخط التماسّ، وتنمو قوانين المجرّات معلنةً سُدُماً ثلاثة: نورمو سديم أحمر، كرة المعدن سديم أخضر، الغزال سديم مبتهج باقتفاء الخصوم.

يوقظ الغزال والغزال يوقظني بحروبه ولا يراوغ ولا يتخفىٰ، ولكنني اكتشف أنه يتقن الثأر كما يتقن ابتكار الخصوم، والغزلانُ فصائل تتجنّب الليل، والخديعةُ فصائل من كائناتٍ تكوّنُنا قبلنا كائنات الرمل الراكض وكائنات السهوب الناعسة كائنات المخاضات الضحلة الغزلان المرقطة بمساءات الغابة وتلك الغزلان مثيلات المَها والغزلان التي لها ذخائر مِسكٍ تحت أحزانها وغزلان الرنّة سادة الثلوج وغزلان أخرى تفرح بالفوز ويبهجها القتال.

وذا غزالٌ واحدٌ يوجزُ السلالة الشَّرود المسبوقة بالجنائز والفرائس والمسلاّت والعقبان واللبؤات، قطيعٌ بأجمعه يتململ في قرنيه: تاريخ من الغابات والرمال والذئاب والأقمار والصيادين والسناجب والنبال والجراح يتحرك تحت أجفانه الناعسة.

القطيع المهيب المرهف المفتون بالعشب والدم يتجه بمساره مباشرة إلى فكرتي عنه متقدماً في مهابة عدوّ مكافئ لي، والموتُ يطلق شذا المِسْكِ من غُدَدِهِ مع عرقِ مَثْنَيهِ وراء القرنين الشجريْن، والدمُ شارته التي ترسمني على جلده بعد أن رسم تاريخه علامةً على قميصي في جولةٍ سابقة حين اخترق بأغصانِ قرنيهِ الهائلين صدري وأنشب فروعه في رئتيّ وأوقفني بهما؛ فالقتل الغزلاني يفضي الى يقظة والاشتباك مع الموت يجيءُ بالعلامات.

العلامة سر الدائرة، والغزلان والرمانة والكرة الخضراء جوهرُ اكتمال في تناسخ الكائن البشري وسلالات الغزلان. أضمرت حدوسي وحدقتُ إليهما: الرجل والغزال. فأخذت الغزلانُ تعدو بي في السَّهب المسفوح للهواء، فَزّت الوعول الأخرىٰ النافرة وارتقتْ سنٌّ الجبل الصخري، والجبل يصوغ مستقبلَ البحر من خيطِ ماءٍ أبيض يتحاشىٰ به الصحاريٰ لا الموت ويجنّبنا به ـ برغم وَهنهِ السائل ـ أن نتلافىٰ لذة الموت، يجنبنا، يجنّبنا مباغتة الغزال.

الغزال أشد اكتراثاً بنا منّا. الغزال موغل بنا في الحصاد، الغزال الغزال الذي رقطته الريح وغسلت المزن مُقلتْيه ـ تصرُّهُ شفرةٌ قاطعة ـ الغزال الذي له تحت فيء شجرتيْ قرنيْه على الجبين الأملس شارةٌ غامضةٌ علامةَ الدهور وهو ـ دون معرفة معلنة بل بحدسٍ بدئيّ ـ يدرك أنه مُوكّلٌ بنقلها الينا، يمررها الى لحمنا عبر طعنة سريعة رائعة ناشبةٍ بالصدر، فتركض الشارةُ في الدم كالصحو في جرسيْ زنبقة ثم يركض الغزال في الشموع المهدورة وينام في معتزلاتٍ مُقامةٍ بين السنديان أسلاف الكمنجات والمقاصل.

ينام ينام غير آبهٍ بموتنا الصاعد الذي خرق به نظامَ الدائرة، ويستيقظ مرةً وأخرى في دمنا. يستيقظ الغزال..

يقظته بُرعمُ نارٍ يسبقنا إلى ازدهارٍ به بذرةُ فناء، والغزال يغزو الأشكال اللاإقليدية، يغزونا بفوضانا والبراعم والشارة والقرون الشجر باليقظة، يقتلنا الغزال...

٣ـ دوامات

هذا عصر الهواء

وأنا من كنت أربّي الأحلام والأسرار والكوارث الصغيرة في قفص مع عندليب وحدأة وتمساح وأشياء أخرى اكتشفتُ أنّ الكثيرين في هذا العالم الزمن يحيون على تربية الهواء في أقفاص. وآنئذٍ أدركت سبب اختناق الملايين من البشر على هذه الأرض ودخولَهم فهارسَ الموتى لوجود تلك الأقفاص الهائلة التي يكدسون فيها الهواء دوامةً بعد دوامةٍ بعد دوامة في انحناءات لا نهاية لها.

وبينما كانت أحلامي تنفي جراحها وتكبر وهي تلاعب التمساح والبرتقال والشموع والكوارث الفاتنة، كنت مطمئنة إلى قدرتي على إنقاذها ممّا حلّ بها رغم ارتياب المدن. وحتى عندما رأيت الناس يدحرجون دوّامات الهواء الدوارة إلى الاقفاص لم يداهمني الفزعُ على أحلامي وأنا أرى آلاف الأقفاص تنمو مثل الفِطريات في أمكنة العالم كلها وسمعتُ الأقفاص ترتّل للهواء أناشيدَ وترنيماتٍ مغويةً تستدرجه اليها، تشفطه فينضغط ويتكوّر وينبعج ويتلوى مثل أفعوان مطعون مفارقاً حريته في تجاوز الأمكنة وأشياء الكون ممتثلاً للأقفاص جرّاء صرخة أو تلويحة بسوط.

ثم تبيّنتُ أن الهواء في الأقفاص يهجسُ مصيره قبل التدجين، فيحاول الإفلات. لكن ما إن يخضعونه لنظام تغذية مستديم مبرمج حتى يكتمل تدجينه. إنما يزداد شراهة وتوحشاً وكأنه النار تتقد ويعلو لهبها كلما ازداد احتجازُها، وكانوا يلقون للدوّامات باقاتِ نرجس وأغصاناً من الآس وعروقاً غضّةً من الخزامى فكانت تسحقها وتدعها تجفّ في دوران قلوبها الدوارة الملتفة على جنونها.

وراقبت الأمر إلى حين، فعرفتُ أن الهواء يطوّر وسائل بقائه فيطالب بالمزيد من الغذاء حتى انتهت به شراسة الانحباس الى المساومة والابتزاز وإنذار الناس:

«أعطوني أسماءً وأسراراً وأفكاراً لكي أبقى وتبقوا

وإلا فإني سأحدث انفجاراً كونياً يدمّر كل شيء».

بدأنا مدّهُ بما يشتهي من أفعالنا السرية وأشيائنا الثمينة الراقدة في أغوار حزننا وسعاداتنا المنبوذة. وانصرفتْ جماعاتٌ هائلة من البشر لجمع القوت للهواء من كل جهات الدنيا لتدوم الحياة على كوكبنا الأزرق.

أخذوا يجمعون بأوعية من لدائن شفافةٍ لها شافطاتٌ ذاتيةُ الحركة أكداساً من الأسرار والأسماء والأفكار يستدرجونها لتغادر الروح ثم تمتصها أفواه الشافطات، والأقفاصُ تواصل الالتهام ثم تصوّب العواصفَ وتطلقها نحو المدن.

(لا يشعر المرء بأيّ قدر من الألم حينما تغادره أسراره وأفكاره الى أنابيب الشافطات الدوارة.

لكنّ خواءً بارداً يتبقى في غور روحه، ودواراً أصفر يموج في رأسه، وبعد حين يصبح قرين ذهول أبيض يفاقم صفيرَ الفراغ في صوته..)

ورأيت الهواء، رأيته يلتهم ما يُلقى إليه ويناشدنا المزيد من القوت. فاذا اشتدّ قيظُ الظهيرات واشتعال المدن يتمدد الهواء في الأقفاص بهيئة أميبيات ترسل أذرعها إلى الطرقات والأبواب وتسحب بأفواهها الماصّة البطاقات الشخصية التي تُثَبّت عليها الأسماء والصفات، فتلتهم الحروفَ بشهية مظلمة ثم تنسحب لتخلد الدوّامات المتخمة إلى قيلولة مجوّفة وسط الأقفاص.

ـ٢ـ

الأقفاص الأقفاص تكاثرتْ في البيوت على البيوت في الطرقات وراء الطرقات فوق الابراج والنواقيس فوق الجُزُر والبحار فوق التلال والفجر أوان الطوفانات أو حين القحط. وصارت المدن الصحارى البلدانُ حديقةً باهرة تضطرب فيها لججُ الأقفاص مع أمواج الهواء، ووسط كلّ قفص دوّامةٌ زرقاء تدور وتدور وتلتف إلى ما لا نهاية له. ولم تتوقف شراهةُ الهواء بل كان يفاقم مطالبه ويصرخ صرخاتٍ شرسة ضارية ويعلن كلَّ حينٍ: عن شهيته لأفكارٍ لعشائه، وأحلام لفطوره، وأسماء وأسرار لغذائه. وتساءلنا عبر الأقاليم ـ عن طريق التخاطب الكومبيوتري ـ عن السبب الذي دعا البشر لبرمجة الهواء السجين على نظام الوجبات الثلاث المعيب كأيّ مخلوق بشري مدجّن وأورثوه شراهتنا العصرية ونَهَمنا الإنساني المخجل.

وحتى يضمن البعضُ النجاة من الذهول الأبيض وفائض المخاوف بدأوا يتخلون باختيارهم عن أحد

مكوّنات حضورهم الحي وشيءٍ من أسرارهم لكي يُسكتوا الوحش الهوائي ويأمنوا خطرَ انفجاره.

ذات قلق سمعتُ فحيحَ زاحفٍ يتمطى على الوقت. ثم رأيت التمساح يزحف على التراب المندّى ساحقاً بحراشفه الشموعَ الذائبة المتشكّلةَ بهيئةِ غزلان لها قرونٌ مدمّاة. وما إنْ يداهمه أنينُ الشراهة الهوائية حتى ينسلّ هارباً إلى أعماق الماء، فخُيِّلَ اليّ أننا سنضطر في عصر قادم الى التحوّل كمخلوقات تُفلت من قفصي الجميل وتزعق بأسماء وأعداد الخسائر الإنسانية التي تساقطت فوق الرماد أمام الأقفاص المتعاظمة.

-٣-

ليس بعدُ ثَمّةَ من بكاء ولا ثلج ولا دعابات ذهبية، الضحك الذي كان من فضة غدا صمتاً بأغوار موّارة يلف ضجيج المدن ويمنح الطرقات مدىً من التوجّس والإثارة والسكينة، ويدل براعِمَ الأرواح على سبل النجاة من الدوّامات. أما مذاق البرتقال وشذاه فقد تحللا في القوارير والأطباق المزجّجة، وبقي آخر الميراث: جدرانٌ تعكس وجوهنا كالمرايا المائية، ونسيانٌ لاهب يؤسس بخيوطه العنكبوتية خزائن لأحزاننا ومباهجنا التي تبقّت لنا ويلفّ بيوتنا بطعم الهجران، بينما تتحول أوراقنا إلى ماسات زرق تتكثّف فيها أرواحنا في سلسلة حرائق أدت الى تبلُّرها واكتسابها صلابة الماس.

[المرأة التي كانت تربي الاحلام والكوارث الفاتنة

تحولت إلى زهرة رمان حين بلغ سيلُ النسيان عتبات ازدهارها]

وحدها المفاتيحُ التي تشبه الأصدقاء وتفتح القلبَ والروحَ والنصوص وينابيع البكاء أعلنت عصيانها لطغيان الهواء وأقفاصه، وما فتحتْ في عصر الهواء قلباً ولا نصّاً ولا أطلقتْ منّا إجهاشة أمام شراهات الوحش الهوائي السعيد.

-٤-

العالم بأكمله صار أسير مملكة الهواء، والطفلةُ الكلمة التي كانت ترفرف بحدس راداري أصيبتْ باللوكيميا؛ فسرطان الدم استوطن الأرحام والأصلاب والأبجديات العظمى. ولإنقاذها لا بدّ من استبدال دمها بدم آخر، وزراعة بعض نخاع جديد في عظامها، نخاع لم تمرّ عليه شهواتُ الحروب ولا شراهة الهواء. ولا بد من القيام بما يثمر أنسجةً وبلازما جديدةً لها، هي الكلمة العارية التي لها رائحةُ حقلٍ محصودٍ ونسغ مالح خرقت الزمن. أبحث لها عن الدم والنخاع فاذا بخنزير برّي يهاجم الوقت ويقترب وخطْمُهُ مكمّمٌ بوحلٍ متيبّس، والطريقُ تفور من قرنَيْ ثَوْرٍ ناتئين من الطمي الحار المثقوب بفوّارات الماء، فوارات دائرية تنفجر فقاعاتها ليرتجَّ جسدُ الماء ويمرّ الخنزيرُ إلى النهر مثيراً الوحولَ مخشخشاً بالقصب والطرفاء مهيِّجاً أنينَ الصفصاف، يفرُّ منه الماءُ وتتصاعد فقاعات الهواء الجديد إلى الأعالي والتلال وقمم نافورات النخل والسدر وشجر الأرْز والپاپايا وتين البنغال، والتلال التلال تلهج برغباتِ أشواكها، ومتسلقاتها الاستوائية وعشبها المداري والأبراج تمد مخالف الفولاذ حفاراتٍ تخرق لبّ الأرض متقصيةً لذة النفط في انفجاره الأول وحرائقه الأولى لتبثق زيوتاً تشعل بها أطواقاً من النور حول المدن كأطواق زحل، الامر الذي يرجئ طغيان الهواء المحبوس ويمدده خفيفاً منفلشاً في الفضاءات الواطئة.

الهواء الآخر الجديد الذي في البراري، الذي يصّاعد من الماء وفوق الحرائق والخلجان والكثبان والوحول والطحالب والبراكين، هو هواء آخر يجدِّد قلوب دوّاماته ويهجّ إلى الأعالي مستعصياً على سطوة الأقفاص ومبرمجيها وشافطاتها.

يصعد يصعد في المسالك المشمسة ودروب المجرّات الحليبية والنجوم الضاحكة. ولفرط اشتعال الأطواق يُصاب الهواء الجديد بالحمّى، فيهذي دوّاماتٍ دواماتٍ دوامات راكضةً حرّةً، يهذي بإمكانات الصعود ويكاثر أساطير محلقةً وغباراً صحراوياً من الصحارى الهائلة: من صحراء غوبي، من صحراء نيڤادا، من الصحراء الأفريقية، وصحراء الملح، والصحارى العربية، ومفازات قره قول. والغبار الرملي مائجٌ صاعدٌ مدوِّم يحطّ يصطدم رقيقاً وصاعقاً بالأشياء: غلائلَ غيوم على وردة العالم، والهواء به ومعه يتمدد ما بين الشمس والسرابات والمفاوز، والرهج يتمدّد ونحن نذوب نتلاطم مياهَ محيطاتٍ، وتجتازُنا وتجتازُهُ في سطوعه

الضوئي ملايينُ ملايينٍ من الكائنات الصغرى تعلن في ايماضة اللحظة حريَّة الكلّ في الهواء الكلّي اللاّحدود له.

-٥-

الهواء الآخر، بل هو الهواء الآتي الى بدئه تتوحد به الكائنات يتوحَّد به الرجلُ، فيحلِّقان معاً الى أشواقهما النائية بأجنحة وأصابع وحدقات راعشة. الهواء الآخر يتعدَّد والرجلُ به يتكاثر، وزهرةُ الرّمان تتوحد مع بلازما دمها مع لونها اللهب تحت قمرٍ ذائب وعواصف بمساراتٍ شَرودٍ ورياح سموم راكضة. الرجل يتصاعد في الهواء، يتعالى من كل أسراره ويتبخر من المدن الأنهار الحافلات الدبابات الناعسة والليل والثلوج واللهب وسكون المتاحف. الرجل يتصاعد في افتتان أخضر، ويتعالى في الفضاءات وضجة الموسيقى والمقاهي الحمراء والفلسفات الموّارة والجسور اللولبية والبرازخ، يتصاعد محمَّلاً بالزمن في هجرة توقظ الظمأ وتملأ الحدقات بالموميض، يتصاعد متماوجاً في هجرته بين الصمت ومعتزلات السكون وهواء الأقفاص، والمرأة زهرة نورمو الرمان تنام في نشرات الأخبار والطوابير المجوَّعة تضحك في اكتمال البذور، وهو يتصاعد من السرير من جسده من صوته من عزلته من أشواقه الملجمة، والمرأة تركض في إعصار أزرق مجنَّحٍ بالمناجل والظلال ورعشاتِ الأرجوان.

ينهمرون، الكلّ ينهمر مرةً أخرى ويهطل في الهواء الآخر، الكلّ يركض في الهواء إلى الأرض: الأصوات والصمت والأشواق والعزلات والحب المقنّع وسفن الفضاء المهجورة والكلمات والنبال والريش وقصائد البجع الحزين. الكل ينهمر في رفقة النار والثلوج واللوم والترقب. الكل ينهمر في الهواء الآخر، وهواءُ الأقفاص يتلوّث يسودّ بنفايات الرؤوس والأسماء وعلامات الماضي وإشارات التفتّح ونذر الذهول.

المرأة الرّمان نورمو تضحك في بهائها المطريّ في الهطول الكبير، وتطوف ملكوتَ الهواء والتراب معاً. والجسد مبثوثٌ في زهرة الهندباء وزرقتها في سرب الغرانق، والزعفران في الأمكنة التي تنبت عشبة الشغف. الجسد كأنه الماء كأنه المحار كأنه الجبل

غُرْفَةٌ لِذاكَ الشَّيءْ

عدنان حافظ جابر

حَتى الآنْ
لَمْ أَجِدْ سَكَناً مُريحاً
أَفْضَلَ مِنَ السِجْنْ
كانَ إيجارُ الزنزانةِ رَخيصاً
والطعامُ مجّاناً

حتى الآنْ
لَمْ أَجِدْ أحلاماً بأجنحةٍ كبيرهْ
ضِحْكاً مِنَ القلبْ
رفاقاً بلا زَيْفْ
كَما وجدْتُ في السجنْ

الآنْ
صارتِ الحياةُ سِجْناً
ولقمةُ العيشِ عَدُوّاً
لأجْلِ هذهِ اللقمهْ
نُجرِّبُ مِهناً جديدهْ
ـ غيرَ مهنةِ النضالْ ـ
لأجلِ حضرتِها
نَبيعُ أغراضَ البيتِ وَنَرْحَلْ
نَذوقُ القهرَ
أَشكالاً وألوانا

الآنْ
بعدَ أنْ طَوى «القادةُ» مَدافعَهُمْ
واشتروا مستقبلاً لأولادهمْ

إلى أين نُوَجِّهُ مدفعَ الشتائِمْ؟
إلى الدنيا العجبْ
أَمْ إلى الذي كانَ السَبَبْ؟!

يا الله!
كَمْ كانت الزنزانةُ حنونةْ!
وكَمْ أتمنى
في المنافي الواسعةْ
أن يكونَ لي غرفةْ
أفْعلُ فيها ذاك الشيءْ
حتىّ لا أضطرَّ إلى فِعلهِ:
في شارعٍ
في حانةْ
على الشرفةِ، والكلُّ نيامٌ
ـ سوى أنا وحُزني ـ

أوْ أنْ أفعَلَهُ على ندى الصباحْ
والعصافيرُ تملأُ السماءَ بالغناءْ
غُرفةٌ لي وحدي
أفعلُ فيها ذاكَ الشيءْ
دونَ أنْ يراني أحَدْ:
غُرفةٌ للبكاء.

بلغاريا

الذي لا يدري أنه جبل كأنه الهواء الآخر، والهواء الآخر والرجل يتصاعدان ثم يحطّان على المفازات، والكلمات تسطع من ورائهن من ملكوت الرمان تهب من شهب الجلنار، يحطان في الندى على وعورة المراعي ومنحدرات الصخر الوردي والسهول المحصودة والدبابات المصهورة والقطارات الجواميس العابرة السهول، يحطّان على الصباح بينما الأبل القوافلُ تجتر أغلفة الطلقات المشعّة وتنام في لغم ساخن.

شجرة الرمّان تهبُ ظلّها للهواء، والمرأة تغطي التاريخ بدموع وكلمات لا لتمحوه بل لتجلوه: تعلنه وتصنع له الكلمة الفضّاحة.

٤ـ فأس

تعمل الفأس داخل الزمن وخارج الهواء وتأخذ بأيدينا إلى عزلة المتربصين.

الفأس قطفناها ثمرةً من كهوف الغروب، فدخلت دائرة الحصى والشوك التي يقف في مركزها رجلٌ بملابس ميدان ممزقةٍ ومعه غزال وكرةٌ معدنٍ خضراءُ لامعةٌ. وبدأت الفأسُ تعمل وتقرن النجوم بعتمة الخنادق، ثم تحولت من مجرد كلمة الى مهابة ملكة تحكم الزمن بعد أن لعبت طويلاً بالتراب والحجر والدخان والجذور والعظام وصارت عرشاً مسوَّراً باللعنات، وأصبحت نهاية كل حدث وخاتمة كلِّ مدينة.

أسمعها تعنّفنا وتمنح أرواحنا فكرتها عنّا، وتقول للغزال:

ـ نصف الروح الإنسانية يشبه البكاء، أتعرف ما الذي يشبهني أنا؟

ـ أنت تشبهين الموت.

ـ بل أشبه الحياة التي تشبع القطيع الجائع، والنهرَ الذي له مستقبل الرمل، والأرضَ التي لها مستقبلُ زلزالٍ.

وعندما تعمل الفأس تصعد بنا الدموع الى الأعالي وتصير الروح بكاء. لكنّها، حتى يتم الهطول

الكبيرُ مرةً اخرى، نهطل مع الزمن فوق صرخات الاسلاف وفيط البلاد وتشربنا المفازاتُ وتنبت الرمال نوساً صغيرة وأرواحاً لها مستودعاتٌ احتياطيةٌ للبكاء من اجل ما سيأتي..

قال الرجل الذي بملابس ميدان ممزقة في دائرة الحصى والشوك:

- إننا في برزخ الخطر.. إننا في برزخ الخطر.

نورمو شجرة الرمان أنصتت له وقالت:

- والفأس؟.. ما جدوى الفأس؟

- أخذتها.

الفأس تململت وأطلقت فكرتها في الهواء:

«إنه يأخذ الموت إذ يتورط بي».

«وقال ملك اوروك لأمه:

يا أمي إني رأيت رؤيا

رأيتُ في أوروك المحصنة فأساً مطروحة تجمّع حولها أهلُ اوروك وازدحموا، فأحببتها وانحنيتُ عليها كأنها امرأة.

وقالت أمه:

أن الفأس التي رأيت

صاحبٌ قويٌّ وصديقٌ

سيأتي إليك».

ومرّت بالجهات قوافلُ، مرّت الغزوات فوق خيول آسيوية عجفاء وتمتمات مغولية، مرت مواكبُ آفلة، مرت بالبلاد قطاراتٌ موسّقة بالتوابيت والشظايا ناثرةً الملحَ على العشب ومدحرجةً صخَبَ المياه إلى البراري.

الفأس رفعتْ نصلها في الفجر وارتشفت ضوءاً ورديا، فاكتمل بريق فعلها القادم.

وخرجتْ من الدائرة، والرجلُ مكلّلٌ بالبروق، الرجل محاصَرٌ بالحدوس يرسم حدائق مشمسةً ويؤسّس المروجَ ويوقظ الأقحوانَ والقرنفل ويرفع المتسلّقات بأزهارها المذهّبَة إلى مرتبة النجوم. الرجل

شجار الكلام

مخلص ونّوس

ولدٌ يمضغ الأَزمنةْ
يداهُ ملطّختانِ بنزفٍ جميلْ
تلاشتْ بواكيرُ أُغنيةٍ
في رؤاهُ،
وملّتْ خطاهُ
من الوقتِ والتّبغ والأمكنةْ.
ولدٌ يرسمُ الأزمنةْ
ملولاً، ولا شيء يرسمُهُ
سوى مطرٍ وخريف
صخبٌ في شراييِنه ودماهُ
يلوذُ بحلم قتيلٍ،
ولا فيءَ إلاّ شجار الكلامْ.
ولدٌ جالسٌ قربَ نافذةٍ
لا تنامْ
وجهُهُ عالقٌ في المدى
واختراقاتُهُ مئذنةْ!
«لا أُريد بحاراً ولا شجراً
واهناً لا أُريدْ
أريدُ المزيدَ من الحبرِ
والخبز،
أريدُ المزيدْ».
ولدٌ كلُّ أوقاتِهِ موهَنَةْ
يُراكم في الأُفقِ أوراقَهُ،
يلبسُ اليأسَ - يا فرح اليأسِ -
من قبلةٍ لعينيه قد تتراءى.
وطنْ
يجهرُ بالحزنِ
كيف له أن يعودَ،
يعيدُ بناء الزّمنْ
ويزرع في ليلهِ سوسنه؟
ولدٌ ضالعٌ في الخرابِ،
ولكنّهُ أبداً يرسمُ الأزمنه.

الكويت

في اللهب يرسم خطوط الشيح والبنفسج وأحواض السوسن ويعلن شجرة الرمان آية فراديسه. وحين أبصرت به القطارات انحرفت عن بساتينه وقفزت الوعول من رياضه وتوغلت القطارات في الرمال فأطلقت القرى صرخاتٍ كالعيون وصعدت صيحات من أفواه المدن العابقة بالضحايا وأرغفة الخبز والفؤوس الجديدة المغلّفة بالسلوفان.

ولبثت الشمس والفأسُ تلاحقان المحطات وتعبران أعوام الذين مروا على أقفاص الهواء وتتابعان بفراسة الموت رائحةَ الذين تطاحنوا في العراء وضجروا من بلادة الهِدْنات الراكدة.

-٢-

ولما ذبلت الشمسُ كبرتقالة هجر الناسُ ملاذاتهم وملاجئهم، هجروا لذة الاصطبار وطنينَ الوساوس لما أن أغواهم أَحَدُ السَّحَرَةِ بالالتحاق بموكبه وهو يعزف بناي مسحور:

- ورائي.. ورائي..

- إلى أين؟ الى اين.. أين تذهب بنا؟

وانقذفوا موجةً تحتضن عاصفةً وساروا وراءه.

- ورائي.. ورائي.

- الى أين؟

- ورائي ورائي.

ولم يعد أحد يتساءل. فقد أخرج الرجلُ من جرابٍ يحمله فأساً مزدوجة الرأس كالتنين، ورسم بها سراباتِ جنانٍ ومصابيحَ ومدن محشوّة خبزاً وملذاتٍ. ولما دخلوا المدن التي رسمتها الفأسُ ساطت أحلامهم المارشات وانتظم المسير.

- ورائي ورائي.

انتظم المسير بايقاع بهيّ، ولكنّ القطيع توقف حين التمعت الفؤوس الصغيرة اللامعة مثل بلّوْرات الملح في الأرغفة الموعودة. طعن صليلُ الصُّنوج جلالَ السّكون الذي أعقب ظهور الأرغفة، فأفاقوا من نشوة السحر وحملوا حقائب مجففةً محْشُوّةً بتذكارات عَصْرٍ ورُقىً وخثارات دمٍ وتعاويذ مرقّشةٍ بالزعفران. فراراً فرّوا من فزّاعات المدن، عبروا تهاويل الظلال وبراري الصدى، ولطّخوا الظلمات بأسمائهم وندمهم، ثم كمنوا وراء متاريس الدائرة يرقبون الرجل الذي يرسم فراديس الوقت تحت أمطارٍ من حجر الشظايا.

-٣-

حين أنجز الرجلُ خَلْقَ الوقت بالبراعم والعشب والداليا والورد، حمل الفأس وغادر الدائرة. ووجد أقفاص الهواء المتكاثرة تسْحب بالشافطات ذاكرات النّاس وأسرارَهُمْ وأسماءهم وأفكارهم إلى الدوامات الهوائية الزرق.

أسرع يدحرج كرته الخضراء اللامعة نحو الأقفاص الجديدة التي نبتت من بذور المخاوف على جوانب الطرقات، فسحقتْ كرتُهُ الأقفاص الناتئةَ كأنياب التنين وأطلقت العشبَ مثل طوفان أخضر.

ولكن سرعان ما نثرت الأقمارُ الصناعيةُ والأصوات بذورَ أقفاصٍ جديدة، فتصاعد نواحُ السلالات ونامت المدن على صهيل الدوّامات وصرخات الهواء.

الفأس بيده، وهو يدير النسيان للعالم ويدخل الزمن قافراً على الأصنام وغدران الدم وفخاخ الوهم غير عابئ باللافتات ولا آبهٍ بالوصول، والمدن تدخل نعاس الخمود وتنام مخدَّرة مثل أسماك شبوط ميتة في مياه دافئة.

قررت الفأسُ في غفلة منه أن تشاكس الهواء وأوحت إليه أن يلقي بها إلى الأرض، فألقاها وبدأ مقبضُها الخشبي يدخن ويتوهّج حتى شبَّ حريق وأشعل الأشجار الحرجيَّة الجافة وأطرافَ البساتين المهجورة والأجماتِ، وغطّت المدينةَ سحابةٌ حجبت الهواء الآخَر عن النائمين، وتسلّلَ الدخان الى النوافذ والمخادع فهبّ الناسُ في فوضى سعال وعطاس ودموع، وانسحب النائمون من كهف الذهول إلى يقظة الدخان واندفقوا في الطرقات، وامتلأ الوقتُ بالأصوات، وابتدأت صحوةُ الدم.

الرجل الأعزل من فأسه استقبل رائحةَ الغزال التي أطلقها في الريح وهو يغادر الدائرة ويتبع خطاه الى

المدن. ولما وصل الغزال إليه أطلق عويلاً متقطعاً وتشنَّج جسده وهوى إلى الأرض متصلباً ثم بدأ ينكمش ويتضاءل حتى تلاشى ولم يتبق منه غير قرنيه الشجريين اللذين تحولا إلى مقبض خشبي، وغير قلبه الذي تحول الى نصل فولاذ.

ولما رأت الجموعُ الفأس تسطع في البروق وتحت النجوم وأمام ضواري الليل، اختطفتها الأيدي. وبسرعة السحرة وضعوها على وسادةٍ مخملٍ حملتها فتاةٌ مكدَّسة بالأزاهير كأنها مقبرة لجنود مجهولين وتقدمت بها الى كاهن المدينة وعرافها فأسرع يبارك البريق المعدني وينثر كأساً من الدموع تحمله قطةٌ ذهبية.

تألقت الفأس أمام الحشود التي تعالَى هدير غنائها وأخذت الأعمدةُ والبوابات والنواقيس والأنهار والقلاع وأجنحة الطيور ورخام التماثيل تردد معها:

ـ الظافر بالأعياد ذخيرته فأس.

ـ آمين... آمين.

ـ الظافر بالمجد ذخيرته قفص.

ـ آمين... آمين.

بغتة صدح صوتٌ بغناء منفرد من جهة «نورمو» المرأة شجرة الرمان، وامتد فوق الأصوات المتضافرة:

ـ الظافر بالأعياد ذخيرته سنبلة.

وهكذا غيرت الفأسُ فيزياءَ الصدى. كان صوت نورمو صدىَ روحها، لا صدى الجموع التي استنكرت غناءها. فأعلنت مرة أخرى:

ـ الظافر بالجهات ذخيرته فأس.

ـ آمين... آمين...

صعد صوت المرأة من جديد:

ـ الظافر بي ذخيرتُهُ الزمن...

وفي تلك اللحظة انبثق الرجلُ من مسافة ضوء وسط عتمات الجموع، واختطف الفأس من حوزة الجنون.

ركض في براري الندى ولاحقته الطرقاتُ والسككُ التي بدأت تفارق توازنها وتتلاقى وتتَّحد كلّها مجتمعةً في شريط ضوئي يلحق بالرجُلِ حامِلِ الفأس.

وعلى الطرقات وفي البراري أيقظَتْ خطواتُ الرجل زهوَ الهداهد ورعشات القبَّرات وخرافات القنافذ وأسرابَ الغرانق الوردية. وحين بلغ أقصى الوقت وبدايات الجمال وجد نورمو المرأة وبيدها فأسٌ أخرى تقف في ظلال شجرة الرمان التي حرسها في تلك الحرائق من الجحيم، ولم يكن يتوقع ظهورها المباغت وسط هذا الخراب. سقطت فأسُه من يده فانتفض منها الغزالُ واتجه صوب المرأة وأطرافُهُ تقطر دماً ومسكاً، واقترب وحدَّق اليها بعينين ناعستين ثم حكّ خطمه الأسود بذراعها وداعبها بقرنيه وهو يهمهم ويذرف الدموع.

الرجل أمسك بعنق الغزال وأسرَّ له بشيء، فقفز الغزال وحفر بأظلافه التراب، ثم انطلق يعدو في الطرقات المهجورة يحطم أقفاص الهواء بقرنيْه، والرجل يدحرج الدوَّامات بالكرة الخضراء والغزال، وتحطمت سلالاتُ الأقفاص وتناثرت القضبانُ في السهول والمياه واختلطت اسماء البشر وأسراراهُم وأفكارهم التي أطلقها الرجل وغزاله وكرته الخضراء من أسر الأقفاص، وواصل الهواءُ تحولاته إلى كراتٍ وبالونات وضحكاتٍ. ولما ارتفعت البالونات والفقاعات في الهواء الآخر أحدثت انفجاراتٍ مثيرة وأسرع الغزالُ اللاهثُ نحو المرأة، وداعَبَ ذراعهَا بخطمه فابتلَّ وجهُهُ بعرقها، واستيقظتِ الكوارتُ الفاتنة الصغيرة في أصابعها وجسدها، بينما أطلق سحابات شذا المسك باتجاه حواسّ الرجل الذي أنجز حدائق العالم تحت هطول اللهب الكبير.

بغداد

للاشتراك بـ الآداب Telefax: 00961- 1- 861633